بسم الله الرحمن الرحيم

مَنْظُومَةٌ فِي

السَّيْرِ إِلَى اللهِ وَالدَّارِ الآخِرَةِ

للشيخ العلامة

عبد الرحمن بن ناصر السعدي -رحمه الله-

سَعِدَ الَّذِينَ تَجَنَّبُوا سُبُلَ الرَّدَى ... وَتَيَمَّمُوا لِمَنَازِلِ الرِّضْوانِ

فَهُمُ الَّذِينَ أَخْلَصُوا فِي مَشْيِهِمْ ... مُتَشَرِّعِينَ بِشِرْعَةِ الإِيمَانِ

وَهُمُ الَّذِينَ بَنَوْا مَنَازِلَ سَيْرِهِمْ ... بَيْنَ الرَّجَا والْخَوْفِ لِلدَّيَّانِ

وَهُمُ الَّذِينَ مَلا الإِلَهُ قُلُوبَهُمْ ... بِوِدَادِهِ وَمَحَبَّةِ الرَّحْمَنِ

وَهُمُ الَّذِينَ أَكْثَرُوا مِنْ ذِكْرِهِ ... فِي السِّرِ وَالإِعْلاَنِ وَالأَحْيَانِ

يَتَقَرَّبُونَ إِلَى الْمَلِيكِ بِفِعْلِهِمْ ... طَاعَاتِهِ وَالتَّرْكِ لِلْعِصْيَانِ

فِعْلُ الْفَرَائِضِ وَالنَّوَافِلِ دَأْبُهُمْ ... مَعْ رُؤْيَةِ التَّقْصِيرِ وَالنُّقْصَانِ

صَبَرُوا النُّفُوسَ عَلَى الْمَكَارِهِ كُلِّهَا ... شَوْقًا إِلَى مَا فِيهِ مِنْ إِحْسَانِ

نَزَلُوا بِمَنْزِلَةِ الرِّضَا فَهُم بِهَا ... قَدْ أَصْبَحُوا فِي جُنَّةٍ وَأَمَانِ

شَكَرُوا الَّذِي أَوْلَـى الْخَلاَئِـقَ فَضْلَـهُ ... بِـالْقَـلْـبِ وَالأَقْـوَالِ وَالأَرْكَـانِ

صَحِبُـوا التَّوَكُّـلَ فِـي جَمِيعِ أُمُـورِهِـمْ ... مَـعْ بَـذْلِ جُهْـدٍ فِي رِضَـا الـرَّحْمَـنِ

عَبَدُوا الإِلَـهَ عَلَـى اعْتِقَـادِ حُضُـورِهِ ... فَتَبَـوَّؤُوا فِـي مَـنْـزِلِ الإِحْسَـانِ

نَصَحُـوا الْخَلِيقَـةَ فِـي رِضَـا مَحْبُوبِهِـمْ ... بِـالْعِلْـمِ وَالإِرْشَـادِ وَالإِحْسَـانِ

صَحِبُـوا الْخَـلاَئِـقَ بِالْجُسُـومُ وَإِنَّمَـا ... أَرْوَاحُـهُـمْ فِـي مَنْـزِلٍ فَـوْقَـانِـي

بِاللـه دَعـوات الْخَـلاَئِـق كُلَّهَـا ... خَـوْفًـا عَلَـى الإِيمَـانِ مِـنْ نُقْصَـانِ

عَزَفُوا الْقُلُـوبَ عَنِ الشَّوَاغِـلِ كُلِّهَـا ... قَـدْ فَـرَّغُوهَـا مِـنْ سِـوَى الرَّحْمَـنِ

حَـرَكَاتُهُـمْ وَهُمُومُهُـمْ وَعُزُومُهُـمْ ... لِلَّـهِ، لاَ لِـلْخَـلْـقِ وَالشَّيْـطَـانِ

نِعْـمَ الرَّفِيـقُ لِطَالِبِ السُبُـلِ الَّتِـي ... تُفْضِـي إِلَـى الخَيْـرَاتِ وَالإِحْسَـانِ

مُقدِّمةُ المؤَلِّفِ

الحمدُ للهِ ربِّ العالَمين، والصلاةُ والسَّلامُ على محمدٍ وآلِه وصحبِه أجمعين.

هـذا تعليـقٌ لطيـفٌ عـلى مَنظـومتي في « **السَّـيرِ إلى اللهِ والـدَّارِ الآخِـرةِ** »؛ يَحـلُّ معانيهـا ويوضِّـح مَبانيهـا،؛ فإنَّهـا قـد حصـلتْ عـلى كثـيرٍ مِـن منـازل السـائرين إلى الله، التـي تُوصـل صـاحبَها إلى جنـاتِ النعـيم في جـوارِ الـرَّب الكـريم، وتمنعُـه مِـن عـذابِ الجحـيم والحِجـاب الأليم، واللهُ المسؤول بفضلِه ومَنِّه أنْ يجعلَه خالصًا لوجهِه، مُقرِّبًا عنده.

واعلـمْ: أنَّ المقصـودَ مِـن العبـدِ عبـادةُ الله ومعرفتُـه ومحبتُـه والإنابـةُ إليـه عـلى الـدَّوام، وسـلوكُ الطريـق التـي تُوصـلُه إلى دارِ السـلام، وأكثـرُ النـاس غَلـب علـيهم الحِـسُّ ومَلكـتهم الشهواتُ والعـادات؛ فلـم يرفعـوا بهـذا الأمـرِ رأسًـا، ولا جعلـوه لبِنـائهم أساسًـا؛ بـل أعرَضـوا عنـه اشـتغالًا بِشَـهواتِهم، وتَركـوه عُكُوفًـا عـلى مُـراداتِهم، ولم يَنتَهُـوا لاسـتدراكِ مـا فـاتَهُم في أوقـاتِهم، فهُـم في جهلِهـم وظُلمِهـم حـائِرون، وعـن ذِكـر ربِّهـم غـافِلون، ولمصـالِح ديـنِهم مُضـيِّعون، وفي سُـكر عِشـقِ المألوفـاتِ هـائِمون: ﴿**نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ**﴾ [الحشر: ١٩].

ولم ينتبـهْ مِـن هـذه الرقـدةِ العظيمـة، و المُصـيبةِ الجسـيمة، إلا القليـلُ مِـن العقـلاء، والنـادرُ مِن النـبلاء؛ فعَلِمـوا أنَّ الخسـارةَ كـلَّ الخسـارةِ الاشـتغالُ بـما لا يُجـدي عـلى صـاحبِه إلا بالوَبـال والحِرمـان، ولا يُعوِّضُـه ممـا يؤمِّـل إلا الخُسـران؛ فـآثَروا الكامـلَ عـلى النـاقص، وبـاعُوا الفـانيَ

بالباقي، وتحمَّلوا تعبَ التكليفِ والعبادة، حتى صارتْ لهم لذةً وعادة، ثم صارُوا بعد ذلك سادة، فاسمعْ صِفاتِهم، واستعنْ باللهِ على الاتِّصاف.

شَرحُ مَنظومةِ

« السَّيْر إلى اللهِ والدَّارِ الآخِرةِ »

[سَعِدَ الَّذِينَ تَجَنَّبُوا سُبُلَ الرَّدَى وَتَيَمَّمُوا لِمَنَازِلِ الرِّضْوانِ]

هذا هو أصل طريقِهم وقاعدة سيرِ فريقِهم.

- إنهم تجنَّبوا طرُق الخسران، وتيمَّموا طرق الرِّضوان.
- تجنَّبوا طرقَ الشيطان، وقصَدوا عبادةَ الرحمن.
- تجنَّبوا طرقَ الجحيم، وتيمَّموا سُبلَ النَّعيم.
- تَركوا السيِّئاتِ وعمِلوا الحسَنات.
- نزَّهوا قلوبَهم وألسِنَتَهم وجوارِحَهم عن المحرَّمات والمكروهات، وشغَلوها بِفعلِ الواجِباتِ والمستحبَّات.
- تحلَّوا بالأخلاقِ الجميلة، وتخلَّوا عن الأوصافِ الرذيلة.

[فَهُمُ الَّذِينَ أَخْلَصُوا فِي مَشْيِهِمْ مُتَشَرِّعِينَ بِشِرْعَةِ الإِيمَانِ]

هاتانِ القاعدتان -وهما: الإخلاص، والمتابعة- شرطٌ لكلِّ عبادة -ظاهرةٍ وباطنة-؛ فكُلُّ عملٍ لا يُرادُ به وجهُ الله فهو باطِل، وكلُّ عملٍ لا يكونُ على سُنةِ رسولِ الله ﷺ ؛ فهو مَردُود. فإذا اجتمع للعملِ الإخلاصُ للمعبود -وهو: أن يُرادَ بالعملِ وجهُ الله وحدَه-، والمتابعةُ للرسولِ ﷺ -وهو: أن يكونَ العملُ قد أمَر به-؛ فهذا هو العملُ المقبول.

[وَهُمُ الَّذِينَ بَنَوْا مَنَازِلَ سَيْرِهِمْ بَيْنَ الرَّجَا والْخَوْفِ لِلدَّيَّانِ]

أي: سارُوا في جميع أمورِهم مُستصحِبين ومُلازِمين للخوف والرجاء؛ وذلك أنَّ لهم نظرًا؛ أي نظَر إلى أنفسِهم وتقصيرِهم في حقوقِ اللهِ يُحدِث لهم الخوف، ونظَر [إلى] مِنَن الله عليهم وإحسانِه إليهم يُحدث لهم الرَّجاء.

وأيضًا ينظرون إلى صفات العَظمةِ والجَلال، والحِكمة والعدل؛ فيخافون على أنفسِهم مِن ترتُّب آثارِها، وينظرون إلى صفاتِ الرحمةِ والجُودِ والكرمِ والإحسان؛ فيَرجُون ما تقتضيهِ، فإنْ فعلوا حسَنةً جمعوا بين الخوف والرجاء؛ فيرجون قبولَها ويَخافون ردَّها، وإن عَمِلوا سيِّئةً خافوا مِن عقابِها ورجَوا مغفرتَها بفضلِ الله؛ فهم بين الخوفِ والرجاءِ يتردَّدون، وإليهما دائمًا يَفزعون، ومنهما في أمرِ سَيْرِهم مُتردِّدون، فأولئك الذين أحرزوا قَصب السبقِ، وأولئك هم المفلحون.

[وَهُمُ الَّذِينَ مَلا الإِلَهُ قُلُوبَهُمْ بِوِدَادِهِ وَمَحَبَّةِ الرَّحْمَنِ]

هذه المنزلة -وهي منزلة المحبة- هي أصلُ المنازل كلِّها، ومنها تنشأ جميعُ الأعمالِ الصالحة والنافعة، والمنازل العالِية.

ومعنى المحبة: تعلُّق القلب بالمحبوب، ولُزوم الحُبِّ للقلبِ فلا تنفك عنه، تقتضي مِن صاحبِها الانكِفاف عما يكرهُ الحبيب، والمباردرةَ إلى ما يُرضيه بقلبٍ مُنشرحٍ وصدرٍ رحيب؛ فإن تكلَّم تكلَّم بالله، وإن سَكت سَكَت لله، وإنْ تحرَّك فَلِله، وإنْ سَكن فَلَهُ، ويَحدُث عن الحبِّ الشوقُ إلى الله والقلق؛ فلا يكادُ صاحبُه يستقرُّ.

فإن قيل: فهل [للمحبة] -التي هي أعلى المراتب- مِن وسيلةٍ وسببٍ؟

قيل: لم يجعلِ الله مطلبًا إلا جعل لحصولِه سببًا؛ فمِن أكبر أسبابِها: الانكفافُ عن كلِّ قاطع بالقولِ والفعل والأفكار الرديَّة، والإكثارُ من ذِكر الله بحضور قلبٍ وتدبُّر كلامِه الكريم، ومُطالعة نِعمِه العظيمة على العبد، وبالوقوفِ بين يديه بحضورِ قلبٍ وأدَب في الوقوف بين يديْه، ومجالسةُ المحبِّين ومجانبة كلِّ قاطع، فمَن فعل ذلك؛ نال محبةَ الله -إن شاء الله-، و الله المستعان.

ولهذا قلتُ:

[وَهُمُ الَّذِينَ أَكْثَرُوا مِنْ ذِكْرِهِ فِي السِّرِ وَالإِعْلاَنِ وَالأَحْيَانِ]

منزلة شريفة، حاجةُ كلِّ أحدٍ إليها، بل ضرورة إليها فوق كل حاجة. فذِكر الله هو عمارة الأوقات، وبه تزولُ الهمومُ والغُموم والكدورات، وبه تحصل الأفراحُ والمسرَّات، وهو عمارة القلوب المُقفِرات، كما أنه غِراس الجنات، وهو مُوصل لأعلى المقامات، وفيه مِن الفوائد ما لا يُحصى، ومن الفضائل ما لا يُعد ولا ينقضي.

قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ۝٤١ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ [الأحزاب: ٤١-٤٢]. وقال النبيُّ ﷺ لرجلٍ قال: إنَّ شرائعَ الإسلام قد كثُرتْ عليَّ فأوصِني؛ قال: « **لا يَزالُ لِسانُكَ رطبًا مِن ذِكرِ اللهِ** » [الترمذي: ٣٣٧٥، وابن ماجه: ٣٧٩٣، وأحمد: ٤/ ١٨٨-١٩٠]. وقال: « **سَبَقَ المُفَرِّدُونَ** »، قالوا: وما المفرِّدون؟ قال: « **الذَّاكِرونَ اللهَ كَثيرًا والذَّاكِراتُ** » [مسلم: ٢٦٧٦].

ولي من الأبيات:

وكُنْ ذاكِرًا للهِ في كُلِّ حالةٍ ... فليس لذِكْرِ اللهِ وقتٌ مُقيَّدُ

فذِكرُ إلهِ العرشِ سِرًّا ومُعلَنًا ... يُزيلُ الشَّقا والهمَّ عنكَ ويطرُدُ

ويجلبُ للخيراتِ دنيًا وآجِلاً ... وإن يأتِكَ الوسواسُ يومًا يُشرِّدُ

فقد أخبَرَ المُختارُ يومًا لصحبِهِ ... بأنَّ كثيرَ الذِّكر في السَّبقِ مُفرِدُ

ووصَّى مُعاذًا يستعينُ إلهَهُ ... على ذِكرِهِ والشُّكرِ بالحُسنِ يُعبَدُ

وأوصَى لشخصٍ قد أتَى لنصيحةٍ ... وقد كانَ في حَملِ الشرائعِ يَجهَدُ

بأنْ لا [يزلْ] رطبًا لسانُكَ هذهِ ... تُعينُ على كلِّ الأمورِ وتَسعدُ

وأخبرَ أن الذِّكرَ غرسٌ لأهلِه ... بجناتِ عدنٍ والمساكنُ تمهدُ

وأخبرَ أنَّ اللهَ يذكُرُ عبدَهُ ... ومعْه على كلِّ الأمورِ يُسدِّدُ

وأخبـــر أنَّ الذِّكـــرَ يبقَـــى بجنـــةٍ ... وينقطـعُ التكليـــفُ حيـنَ يخلَّـــدوا

ولـو لـم يكـنْ فـي ذِكـرِهِ غيـرَ أنـهُ ... طـريـقٌ إلـى حُـبِّ الإلـهِ ومُرشِـدُ

ويَنهَـى الفتـى عـن غِيبـةٍ ونميمـةٍ ... وعـن كـلِّ قـولٍ للديـانـةِ مُفسـدُ

لكـان لنـا حـظٌّ عظيـمٌ ورغبـةٌ ... بكثـرةِ ذِكـرِ اللـه نِعـمَ الموحَّـدُ

ولكننـا مِـن جهلِنـا قـلَّ ذِكـرُنـا ... كـمـا قَـلَّ منـا للإلـهِ التعبُّـدُ

وذِكرُ الله نورٌ للذاكرِ في قلبِه، وفي قوله، وفي قبرِه، ويومَ حشره، والله المستعان.

[يَـتَـقَرَّبُـونَ إِلَـى الْـمَـلِيكِ بِفِعْـلِـهِـمْ ... طَـاعَـاتِـهِ وَالتَّـرْكِ لِلْعِـصْيَـانِ]

هذه الأعمالُ التي تقرِّبُ [إلى] الله، وتوصل إليه، وهو فِعل طاعتِه -لا سيَّما الفرائض-، وتركُ مَعاصِيه، كما في الحديث القُدسيِّ: « **وما تقرَّب إليَّ عبدِي بشيءٍ أحَبَّ إليَّ مما افترضْتُه عليه، ولا يَزالُ عَبدي يتقرَّبُ إليَّ بالنوافلِ حتَّى أُحِبَّهُ** » [البخاري: ٦٥٠٢].

فلهذا قلتُ:

[فِعْـلُ الْفَرَائِـضِ وَالنَّوَافِـلِ دَأْبُـهُـمْ ... مَـعْ رُؤْيَـةِ التَّقْصِيـرِ وَالنُّقْصَـانِ]

هذا هو الكمال، وهو أن يجتهدَ في أداءِ الفرائضِ، والإكثارِ من النوافل، ويرى نفسَه مقصِّرًا مفرِّطًا، فاجتهادُه في الأعمالِ يَنفي عنه الكسل، ورؤيةُ تقصيرِه يَنفي عنه العُجبَ الذي يُبطلُ الأعمالَ ويفسدُها.

[صَبَـروا النُّفُــوسَ عَلَـى المَكَارِهِ كُلِّهَـا   شَوْقًــا إِلَـى مَــا فِيــهِ مِـنْ إِحْسَــانِ]

الصـبُر: هـو حـبسُ الـنفسِ عـلى مـا يكـرهُ الإنسـانُ إذا كـان فيـه رضـا الـرحمن. والصـبر ثلاثـةُ أقسام:

صبرٌ على طاعةِ الله حتى يؤدِّيَها.

وصبرٌ [عن] معاصي الله حتى يتركَها.

وصبرٌ على أقدارِ الله المؤلِمَة؛ فلا [يتسخَّطها].

فـإذا كسـلتْ نفسُـه [عـن] طاعـةِ الله؛ حثَّهـا عليهـا، وألزمهـا ورغَّبهـا إياهـا بِثوابهـا، وإذا اشـتدَّت دواعـي نفسِـه إلى معصـية الله؛ كفَّهـا عنهـا، وحـذَّرها وبالَهـا وعاقبـةَ فعالِهـا؛ فالصـبرُ محتاج إليه في كلِّ الأمور.

[نَـزَلُـوا بِمَنْـزِلَـةِ الرِّضَـا فَهُـم بِهَــا   قَــدْ أَصْبَحُــوا فِــي جُنَّــةِ وَأَمَــانِ]

منزلة الرِّضـا أعـلى مِـن منزلـة الصـبر؛ فـإنَّ الصـبر حـبسُ الـنفس وكفُّهـا عـلى مـا تكـره، مـع وجـود منازعـة فيهـا، وبالرِّضـا تضـمحلُّ تلـك المنازعـة، ويـرضَى عـن الله رِضـا مطمـئنٍّ مُنشـرِحِ الصدر؛ بل ربما تلذَّذ بالبلاء كتلذُّذ غيرِه بالرَّخاء.

وإذا نزل العبدُ بهـذه المنزلـةِ؛ طابـت حياتُـه وقـرَّت عينُـه، ولهـذا سُـمِّي الرِّضـا: (جَنـة الـدُّنيا ومُسـتراح العابِـدين)، ومَـن رضيَ عــن الله؛ رضيَ اللهُ عنــه، ومــن رضيَ مِــن الله باليسـيرِ مِــن الرزق؛ رضيَ الله منه باليسير مِن العمل.

فحقيقةُ الرضا: تلقِّي أحكام اللهِ الأمريَّة الدينية، وأحكامِه الكونيةِ القدَرِية بانشراحِ صدرٍ وسُرور نفسٍ، لا على وجهِ التكرُّه والتلمُّظ.

[شَكَرُوا الَّذِي أَوْلَى الْخَلاَئِقَ فَضْلَهُ بِالْقَلْبِ وَالأَقْوَالِ وَالأَرْكَانِ]

الشكرُ يكونُ بالقلب، وهو الاعترافُ بنِعَم الله والإقرارُ بها، وعدمُ رُؤية نفسِه لها أهلًا، بل هي محضُ فضلِ ربِّه.

ويكون باللسان؛ وهو الثناءُ على الله بها، والتحدُّث بها. [و]يكونُ بالجوارح؛ وهو كفُّها عن معاصي الله ، والاستعانةُ بنِعَمِه على طاعته؛ فإن أعطاه شيئًا مِن الدنيا شكرَه عليه، وإن زَوى عنه شيئًا منها شَكره -أيضًا-؛ إذ ربما كانت نعمة عليه صارفةً منه شرًّا أعظمَ منها، وإنْ وفَّقه لطاعةٍ من الطاعات؛ رأى المِنة لله في توفيقِه وشُكرِه عليها، والله المستعان.

[صَحِبُوا التَّوَكُّلَ فِي جَمِيعِ أُمُورِهِمْ مَعْ بَذْلِ جُهْدٍ فِي رِضَا الرَّحْمَنِ]

يكمُلُ العبدُ في هذين الأمرين وهما: التوكلُ على الله، والاجتهادُ في طاعة الله، ويتخلف عن العبد الكمالُ بفقدِ واحدٍ منهما.

فحقيقة التوكُّل يجمع أمرين: الاعتمادَ على الله، و الثقةَ بالله؛ فيعتمد على ربِّه بقلبِه في جلبِ ما ينفعُه في أمر دينِه ودنياه، فيتبرأ مِن نفسه وحولِها وقوَّتها، ويثق بالله في حصولِ ما ينفعه ودفعِ ما يضرُّه، ويجتهدُ في الأسبابِ التي يتوصلُ بها إلى المطلوب.

وتفصيل ذلك: أنه إذا عزم على فِعل عبادة؛ بذل جهدَه في تكميلِها وتحسينِها، ولا يبقى مِن مجهود مقدور، وتبرأ مِن النظر [إلى] نفسِه وقوَّتها، بل لجأ إلى ربِّه واعتمد عليه في

تكميلِها، وأحسَنَ الظنَّ ووثق في حصول ما توكَّل به عليه، وإذا عزم على ترك معصيةٍ قد دعتْه نفسه إليها؛ بذل جهدَه في الأسباب الموجِبة لتركِها -مِن التفكُّر بها وصرفِ الجوارح عنها-، ثم اعتمد على الله ولجأ إليه في عصمتِه منها، وأحسن الظن به في عِصمته له؛ فإنه إذا فعل ذلك في جميعِ ما يأتي ويذَر؛ رجا له الفلاح -إن شاء الله تعالى-.

وأما مَن استعان بالله وتوكَّل عليه، مع تركِه الاجتهادَ اللازم له؛ فهذا ليس بتوكُّل؛ بل عجزٌ ومَهانة، وكذلك مَن يبذلُ اجتهادَه ويعتمد على نفسِه ولا يتوكل على ربِّه؛ فهو مخذول.

[عَبَدُوا الإِلَـهَ عَلَى اعْتِقَادِ حُضُورِهِ فَتَبَوَّؤُوا فِي مَنْزِلِ الإِحْسَانِ]

هذه المنزلة يُقال لها : (منزلة الإحسان)، وهي كما فسرها النبيُّ ﷺ: « **أَنْ تَعبُدَ اللهَ كأَنَّكَ تَراهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ؛ فَإِنَّهُ يَراكُ** » [مسلم: ٨].

فإذا تصوَّر الإنسانُ [هذا] المقامَ في جميعِ أحوالِه -لا سيَّما حال العبادةِ -؛ منعه مِن الالتفات بقلبِه إلى غيرِ ربِّه؛ بل أقبل بكُلِّيتِه على الله، وتوجَّه بقلبِه إليه متأدبًا في عبادتِه آتيًا بجميع ما يكمِّلُها، مُجتنبًا كلَّ منقص لها.

وهذه المنزلة مِن أعظم المنازلِ وأجلِّها، ولكنها تحتاجُ إلى [تدريبٍ] للنفوسِ شيئًا فشيئًا، ولا يزالُ العبدُ يعوِّدُها نفسَه حتى تنجذبَ إليها وتعتادها، فيعيشُ العبدُ قريرَ العين بربِّه، فرِحًا ومسرورًا بقُرْبِه.

[نَصَحُوا الْخَلِيقَةَ فِي رِضَا مَحْبُوبِهِمْ بِالْعِلْمِ وَالإِرْشَادِ وَالإِحْسَانِ]

[صَحِبُـوا الْخَـلاَئِـقَ بِالْجُسُـومُ وَإِنَّمَـا أَرْوَاحُـهُـمْ فِـي مَنْـزِلٍ فَـوْقَـانِـي]

هـذه حـالُهم مـع الخلْـق، أكمـل حـالٍ وأجلُّهـا، فأبْـدَوا لهـم غايـةَ النُّصـح، وأحبُّـوا لهـم مـا أحبُّوا لأنفسِهم مِن الخير، وكَرِهـوا لهـم مـا كَرِهـوا لأنفسِـهم مِـن الشَّـرِّ؛ فسَـعَوْا في إزالـةِ الشَّـر عـنهم بكـلِّ مُمكِـن، واجتهـدوا في إيصـالِ النفـعِ إلـيهم بكـل مقـدور، مِـن: أمـرِهم بـالمعروف، ونهـيِهم عـن المنكـر، و إطعـامِ جـائِعِهم، وكسـوةِ عـاريهم، وإغاثـةِ ملهـوفِهم، وتعلـيمِ جـاهِلِهم، وردْعِ ظالِمِهم، ونصرِ مظلومِهم، واحتمالِ أذاهم، وكفِّهم أذى أنفسِهم عنهم.

ومـع هـذا فصـحبتُهم لهـم بالظـاهر والجسـم، وأمـا قلـوبُهم وأرواحُهـم؛ فإنهـا تجـولُ حـولَ الحبيـب وتطلـبُ مـن قُربـه أعظـمَ نصـيب، فتـارةً تنكسـر بـين يديـه، وتخشـعُ وتخضـع لديـه، وطـوْرًا تشـكُره لِحُبِّـه، وتـدلُّ لاستحضـارِ بِـرِّه وقُربِـه، ثـم تميـلُ إلى مَراضـيه، فتجتهـدُ في عبادتِـه وتحسـنُ إلى مخلوقاتِـه، فهـؤلاء هـم النـاس، بـل هـم العقـلاء الأكيـاس، ولا حـول ولا قـوةَ إلا بالله.

[بِاللـه دَعـوات الْخَـلاَئِـق كُلَّهَـا خَـوْفًـا عَلَـى الإِيمَـانِ مِـنْ نُقْصَـانِ]

هـذه منزلـة الرعايـة لحقـائقِ الإيـمان ومشـاهِد الإحسـان، وذلـك أن العبـد لا ينبغـي لـه أن يُعـرِض عـن تـدبُّر أحوالِـه، والتفكُّـر في نقـصِ أعمالـه، بـل يبـذل جهـدَه قبـل العمـل، وفي نفـس العمـل وتَصـحيحِه وتَحسـينِه، ثـم يَصـونه عـن المفسِـدات، وينزِّهُـه عـن المنقصـات؛ فـإنَّ حِفـظ العمـل أعظـمُ مِـن العمـل، فكلـما ازداد العبـدُ رعايـةً لِعملـه واجتهـادًا فيـه؛ ازداد إيمانُـه، وكلـما نقص مِن ذلك؛ نقص مِن إيمانِه بحسبِه.

ومِـن أعظـم مـا ينبغـي مراعاتُـه في العمـل: مشـهدُ الإحسـان، وهـو الحـرص عـلى إيقـاع العبادة بحضورِ قلـبٍ وجمعيـةٍ عـلى الله، وكـذلك مراعـاة مِنَّـة الله عـلى العبـد، وأنـه ينبغـي لـه أن يشـكرَ اللهَ عـلى توفيقِـه لـذلك العمـل أعظـمَ شُـكر، وكـذلك مراعـاة التقصـير، وأنـك لم تُـؤتِ العبادةَ حقَّهـا ، ولا قُمـتَ بجميـعِ مـا تسـتحقُّها، وكـذلك مراعـاةُ الخـوفِ والرجـاء: يخـاف مِـن ردِّها بعُجـب، أو رِيـاء، أو تكـبُّر بهـا، أو عـدمِ قِيـامٍ بحقِّهـا، أو غـيرِ ذلـك، ويرجـو قبولَهـا برحمـة ربِّه وَمنِّه وإحسانِه إليه الذي مِن جملته توفيقُه لها.

[عَزَفُوا الْقُلُـوبَ عَنِ الشَّوَاغِـلِ كُلِّهَـا قَـدْ فَـرَّغُوهَـا مِـنْ سِـوَى الرَّحْمَـنِ]

[حَـرَكَاتُهُـمْ وَهُمُومُهُـمْ وَعُزُومُهُـمْ لِلَّـهِ، لاَ لِـلْخَـلْـقِ وَالشَّيْـطَـانِ]

أي فرَّغوا قلوبَهم عـن جميـعِ مـا يُشـغل عـن الله ويُبعـدُ عـن رضـاه، وهـذا حقيقـة الزهـد، ولا يكفي هذا التفريـغُ حتـى يمتلـئ القلـبُ مـن الأفكـارِ النافعـةِ والعُـزومَ الصـادقة؛ فتكـون أفكـارُ العبـدِ في كـلِّ مـا يقـربُ إلى الـرحمنِ مِـن: تصـوُّرِ عِلـم، وتـدبرِ قـرآن، وذِكـر الله بحضـور قلـب، وتفكرٍ في عبـادة وإحسـان، و[خـوفٍ] مِـن زلـة وعصـيان، وأو تأمُّـل لصـفاتِ الـرحمن، وتنزيهـه عـن جميـع العُيـوب والنُّقصـان، أو تفكـرٍ في القـبر وأحوالِـه، أو يـوم القيامـة وأهوالِـه، أو في الجنـة ونعيمِهـا، والنـار وجحيمِهـا؛ فأفكـارُهم حائمـةٌ حـول هـذه الأمـور، مُتنزِّهـة عـن دنِيَّـات الأمـور. والتفكُّـر بـما لا يُجـدي عـلى صـاحبِه إلا الهَـمَّ و الوَبـال، وتضـييعَ الوقـت، وتشـتيتَ البال؛ غيرُ نافع للعبد في الحالِ والمآل.

[نِعْـمَ الرَّفِيـقُ لِطَالِبِ السُبُـلِ الَّتِـي تُفْضِـي إِلـى الخَيْـرَاتِ وَالإِحْسَـانِ]

فهؤلاء هم الذين يسعَد بهم رفيقُهم، إذا [اقتدى] بسلوك سَيرهم فريقُهم، وهؤلاء الذين أمَرَنا الله أن نسألَه أن يهدِيَنا طريقَهم، إذا أنعم عليهم بصدقِ إيمانِهم وتحقيقِهم.

فنسأل اللهَ أن يهدِيَنا الصراطَ المستقيم: صراطَ الذين أنعم الله عليهم مِن النبيينَ والصديقين والشهداءِ والصالِحين، وحَسُن أولئك رفيقًا، وأن يجنِّبَنا طُرق الغضبِ والضلال الموصلةِ إلى الخزيِ والوَبال؛ إنه أكرم الأكرمين وأرحم الراحِمين.

واللهَ أسأل وبأسمائِه الحُسنَى وصفاتِه ونِعمتِه أتوسَّل: أن لا يحرِمَنا خيرَ ما عنده مِن الإحسانِ والغُفران، بِشَرِّ ما عندنا مِن التقصيرِ بحقوقِه والعصيان، وأن يجعله خالصًا لوجهِهِ الكريم، وسببًا للفوز عنده في جناتِ النعيم.

والحمدُ لله ربِّ العالَمين أولًا وآخرًا، وظاهِرًا وباطنًا، حمدًا كثيرًا مُباركًا فيه، كما ينبغي لِكرَمِ وجهِهِ وعِز جلالِه.

وصلى اللهُ على محمدٍ النبيِّ الأميِّ المبعوثِ رحمةً للعالَمين، وعلى آلِه وصحبِه أجمعين، وسلم تسليمًا كثيرًا.

قال مؤلفه: فرغتُ منه ومِن نسخِه في ٣ شعبان سنة ١٣٣٣هـ

وقد تمَّ بقلمِ الفقير إليه عبده: عبد العزيز بن حمد المصيريع

في ٢٨ شوال سنة ١٣٤٢هجرية

- ما كان بين معقوفين؛ تصحيح مني لما ظننتُه خطأ مطبعيًّا في الطبعة التي بيدي = طبعة دار ابن حزم، ١٤٢٥هـ- ٢٠٠٤م.

- عدلت ما رأيتُ من كسرٍ في بعض الأبيات؛ عن طريق بعض المواقع على الشبكة.